نظرة عابرة

فى ديوان الشـــبيبى

للدكتور عبد الوهاب عزام

حسبت ، وديوان الشبيبى فى المطبعة ، أنى سأسبق الكتّاب إلى الكتابة عنه حين ينجز طبعه ؛ ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه . فقد لبثت حقبة أتربص فرصة بين الأشغال المتتابعة ، وأرتقب فترة فى الأعمال المسرعة ، وكلما صرفتنى الشواغل عن مقصدى أنشدت قول الأنورى الشاعر الفارسى :

أكثر محوّل أحوالِ جهانيان نه قضاست
چرا مجارى أحوال برخلاف رضاست

ويمكن أن يؤدى معناه فى العربية بهذ البيت :

لماذا يخيب رجاء البشر إذا لم يكن أمرهم للقدر

وكانت عطلة عيد الأضحى ، ودعيت إلى المشاركة فى المؤتمر الطبى العربى الذى اجتمع فى مدينة أسوان فقلت هى فرصة : أصحب ديوان الشبيبى فى القطار كما صحبت ديوان البحترى فى سفرى من حلب إلى استانبول قبل أربع سنين . ورحم الله أبا الطيب الذى قال : وخير جليس فى الزمان كتاب

عبرت ديوان الشبيبى عبرة وعزمت على أن أبادر بالكتابة عنه حينما أعود إلى القاهرة . ثم سارت الأيام سيرتها ، وجرت الأمور مجراها ، فإذا شهر ونصف يمضيان من الزمن الطيّار الذى قال فيه المعرى :

وأصغر كون تحته كل عالَم ولا تدرك الأكوانَ جردُ صلادم

وقال عبد الحق حامد شاعر الترك الأكبر :

كجمز ، صانيرم ؛ بوردز كارى سر عتليدر أو لقدر كذارى

(وترجمته :

ويسرع هذا الزمانُ المرورَ إلى أن أرى أنه لا يمرّ)

ثم تسنت لى جلسة خالية مختلسة من بين المشاغل التى تعبّدنا وتستبدّ بعقولنا وقلوبنا فاستطعت أن أخط كلمات قليلة عن ديوان الشبيبى ، وما هى إلا نظرة عاجلة غير شاملة حاولت جهدى ، حين الكتابة ، أن أتجاهل السيد رضا الشبيبى ، وأقدّر أننى لا أعرفه وأنى لا أكنّ له فى نفسى ودًا وإعجاباً ليتيسر لى أن أزن الكلام بقيمته لا بمكانة قائله . ولكن كان كل بيت تقع العين عليه يذكر بأن بيت الشبيبى تتمثل فيه الأديب الوقور جالساً بجلسته ، متحدثاً حديثه ؛ فلم أستطع أن أخادع نفسى عن الشبيبى ساعة واحدة أصف فيها الديوان . قلت لنفسى كيف الحكم وقد قال النقاد ينبغى ألا يكون لمعرفة الإنسان وميله أثر فى حكمه ؟ قالت : قد حكمت ولم تشعر . قلت كيف ؟ قالت : ألست تقول إن كلام الشبيبى يذكر به ، ويصدق الحديث عنه ؟ وخير الكلام ما شف عن صاحبه ومثله لقارئه

— ١ —

يفيض قلب الشبيبى بحب قومه العرب ، وينطق شعره بالغضب لهم والتوجع لما أصابهم والفخر بماضيهم والثقة بمستقبلهم . وحسبك بقصيدته القافية التى يتناشدها أهل الشام :

ببغداد أشتاق العراق وإننى إلى الكرخ من بغداد جمّ التشوق
فما أنا فى أرض الشآم بمشئم ولا أنا فى أرض العراق بمعرق
هما وطنٌ فرد وقد فرقوهما «رمى الله بالتشتيت شمل المفرّق»

وشد ما يعجبنى ويطربنى قوله فيها :

وما الأرض لولا أربع عربية سوى عطنٍ بالعبقرية ضيّق

وقد ذكرنى قوله فى حلوان العراق :

فيا ليتها كانت رباً عربيـة مكرّمة منهن رَضوى وشهلان

بقصيدة أبى الطيب فى شعب بوان حينما افتقد وجه العربى ويده ولسانه ثم قال :

ولو كانت دمشق ثنى عنانى لبيقُ الرد صينيّ الجفان

وكذلك يذكر بأبى الطيب قولُه :

وافت عجائبُ أجيال وأعجبها إذا تأملت ، جيلٌ عربه عجم

واقرأ قصيدته : « دمشق وبغداد » ، وقف على هذا البيت الذى فاضت فيه أنهر العرب الأربعة :

بردَى وأودية الفرات ودجلة والنيل غصّ بمائك الوُرّاد

ويتبين الإباء العربىّ حتى فى غزله :

تعفّف بعد الحجز قوم فما حكوا خلائق أقوام متى قدروا عفّوا

وأشقى الهوى ما كان غاية أهله وعُقباهم منه الخلاعة واللهوا

ومن خير ما يقرأ في هذا قصيدته الحب الطاهر .

— ٢ —

وأما العراق فقد وهبه الشاعر عقله وقلبه . ما يذكره إلا يجب قلبه ويفيض دمعه ، أو تثور نفسه ، حزناً لما يرى وطموحاً إلى ما يبتغي له من العزة والسؤدد والسعادة :

أي دمع يفيض من أي مقله لوقوف بين الفرات ودجله

ما إخال الخرير والماء إلا صوت حزن وعَبرة مستهِلّه

يا خليليّ إن تشاءا اسعداني في شجوني فالحل يسعد خِلّه

عللاني بذكر نهضة قوم قبل ألاّ أرى لقلبي تسلّه

أين ذاك العراق ؟ أين بنوه ؟ ليتهم أبصروا العراق وأهله

وقوله :

نظرت بنى الدنيا فأصررت أنها على الشر لا تنفك تجرى النحائث

هم أضمروا حب الظالم فاستوت دخائلهم والظاهر المتفاوت

سبوائم يرعى بعضها دم بعضها

شتاتاً وهل تحمى السروح الشتائت ؟

— ٣ —

وللأستاذ الشبيبي نظرات في الحياة تعرب عن ضيقه بها وانقباضه وارتيابه في الناس ، وتذكّر أحياناً بأبي العلاء المعرى :

من الناس خاق أيها النفس واحذرى

ولا تأمنى إن المخافة فى الأمن

وكأنك تقرأ للمعرى حين تقرأ القطعة التى سماها « من لزوم ما لا يلزم » :

حياتى هذه ليل إذا متّ غداً يُجلى

وما آسى على شيء من الدنيا وإن جلاّ

— ٤ —

وللأستاذ شعر فلسفى يسمو إلى النظر العالى فى الكون والإبانة عن جلاله وجماله . إقرأ قصيدته على ضفاف دجلة :

يد لدجلة عندى لست أجحدها إلا إذا جحدت سلسالها الميسُ

حلفت ليلة تعريسى بشاطئها ألاّ يميل برأسى عنك تهويم

إذ كل زمزمة فى الكون هينمة بل كل ما فيه تغريد وترنيم

لى فى الرياض إذا أمرّ عن فلسفة وحكمة ملء مرآها تعاليم .. الخ

وبعد فقارئ ديوان الشبيبي يمرّ بصور صادقة ، صور إنسانية عالية وأخرى قومية رائعة . ويرى من آمال الحياة وآلامها ، وسعادتها وشقائها ، وجمالها وقبحها ، ما يحسن الشاعر الإبانة عنه ، ويصدق التصوير فيه ، حتى تحسب خياله حسّا ومجازه حقيقة

والخلاصة أن شعره يصدق قوله فى الشعر :

إذا أنت كابرت الحقيقة عبّرت فصاحة قُسّ عن فهاهة باقل

إذا قلتُ إن الشعر بحر غبنته متى يستقيم البحر من غير ساحل؟

قرأنحنا منه بحور خضارم

ومنها — إذا جرّبتَ — رشحُ الجداول

وأجمع أقوال الرجال أشدها معان كبار فى حروف قلائل

ولله ما أبصره بالشعر الحرّ العالى حين يقول :

ما من بصير بحق الشعر يحفظه

كن شاعر الوقت أو كن شاعر الزمن

زن قبل لفظك معنى البيت تُنشِئه

فربّ بيتٍ بمعنى غير مُتزن

ولعل لنا نظرة أخرى شاملة مفصلة فى الديوان إن شاء الله .

عبد الوهاب عزام

إدارة البلديات — مياه

تقبل العطاءات بإدارة البلديات (بوستة قصر الدوبارة) لغاية ظهر ٢٢ مارس ١٩٤٢ عن توريد عدادات وأدوات مياه لمجالس قليوب والقناطر الخيرية وشبين القناطر وطوخ . وتطلب الشروط من الإدارة نظير ٢٠٠ مليم

٩٠٧٤